الابيض المتوسط ، حيث توجد المرافىء ذات المياه الدافئة . ولما كانوا يعتبرون انفسهم ورثة الاباطرة البيزنطيين ، فالدولة العثمانية التي قامت على انقاض الامبراطورية البيزنطية بقيت عدوتهم التاريخية على مدى القرون ، وظل القياصرة يحلمون باسترجاع القسطنطينية .

هذا كله كان جليا كل الجلاء بالنسبة لرجل مفرط الذكاء وواسع المعلومات مثل هيرش . وهو بقدر تعلقه بأبناء جلدته ، كان يكره الروس من أعماق قلبه ، ولعل النادرة التالية تبين ذلك بوضوح : اجتمع البارون مرة مع يهودي روسي ثري ، وأخذ هذا اليهودي يتباهى بانجازاته ، قائلا انه يشغل عددا كبيرا من العمال (الروس) في مصنعه ، وأنه قد بنى مستشفى لليهود .. وعند ذلك قاطعه هيرش بسخرية مريرة : يا ليتك شغلت اليهود في مصنعك ، وبنيت مستشفاك للروس . فهل اذن كان خوف هيرش من روسيا هو الذي جعله يتردد في توطين اليهود بفلسطين ؟ انه أولا كان على علاقة سيئة مع السلطات العثمانية ، وذلك بسبب مشروع الخط الحديدي السيىء الصيت ، مما كان سيشكل حائلا بينه وبين الاشراف المباشر على مستوطناته ، فيما لو هو اختار فلسطين موقعا لها . ونحن نعلم من دراستنا لشخصية البارون كم هو مولع بدوره كملك غير متوج لليهود المقيمين في مستعمراته بالارجنتين ، فهل كان بمقدوره ان يلعب نفس الدور فيما لو هو وجه سيل الهجرة نحو فلسطين ؟ وحتى لو افترض هو ، بينه وبين نفسه ، بأن الحكم العثماني سائر في طريقه الى الزوال ، فهل هناك ضمان بأن روسيا لن تمد ظلها ليقع على فلسطين ؟

لقد اتفق الملايين على تهجير اليهود من البلاد التي اضطهدتهم ، فهل يجازف في توطين هؤلاء اللاجئين في منطقة تقع ضمن المطامع الروسية الواضحة ؟

ويقول ك. ن. بودينهامر في كتابه « مقدمة الى اسرائيل » ان هيرش كان يفكر في تحويل مستوطناته في الارجنتين الى دولة ، الا ان صهره البارون بشوفسهايم حثه على صرف النظر عن ذلك ، لئلا يكون له تأثير سلبي على حركة اليهود الرامية الى الحصول على حقوقهم المدنية في الدول الاوربية التي يعيشون فيها . فما هو مدى صحة هذا الادعاء ؟ ان غرونفالد يظن (أو على الاقل يقول انه يظن) بأن المبدأ الاساسي في تفكير هيرش هو مساعدة اليهود المضطهدين على الهجرة جماعيا ، وتحرير انفسهم بأنفسهم . وهذا التحرير الذاتي لا يتم الا بالعودة الى الارض ، الى التربة . (أي ان هيرش سبق الف داليد غوردن ، شاعر العمل بالنسبة للصهيونيين ، عندما بشر بالعودة الى الطبيعة الام) . وبرأي غرونفالد ، تدل هذه الدعوة على وجود بذرة صهيونية أصيلة في تفكير هيرش . الا أنه في موقع آخر من كتابه يصف بطل سيرته بأنه مواطن عالمي لا يأبه للحركات القومية ، ولا يؤمن بوجود وطن قومي ينتمي اليه . ويستشهد بعبارته اللاتينية المأثورة التي كان يرددها عندما يسأله أحدهم عن جنسيته الاصلية (اذ كان يحمل أربع جنسيات) وهي تعني : حيث أكون مرتاحا ، هناك موطني ..

أما الصحفي البريطاني اليهودي لوسين وولف ، فقد كتب يصفه اثر مقابلة صحفية معه ، فقال انه يمتلك قلبا يهوديا حقيقيا ، وهو فخور بقوميته اليهودية ، و« شوفينيته اليهودية واضحة » . كما ان هيرش أبدى اعتزازه وفخره بمساهمة اليهود الكبيرة في الحضارة ، ولا سيما في ميادين الطب والعلوم والموسيقى والادب ، وذلك في مقال نشرته له احدى المجلات . وقد شدد في هذا المقال على احتمال زيادة هذه المساهمة في عالم تسوده الحرية . وفي هذا المقال نرى التناقض الاصيل في شخصية البارون . فهو من ناحية يعلن نفوره من المفكرين اليهود ، وينادي بالعودة الى الارض ، ويفضل الفلاح